1. مدخل إلى علم الاجتماع الأدبي

1-تقديم:

يتأثر الأدب بالواقع الاجتماعي بمختلف أبعاده ،لذلك يمكن أن نعده ظاهرة اجتماعية شأنه شأن بقية الظواهر الاجتماعية الأخرى ،يتجلى ذلك في مكونات الأدب ،و هي ثلاثة عناصر جوهرية :المؤلف و الأثر الأدبي، و القارئ،هذه العناصر هي المسؤولة عن علاقة الأدب بالمجتمع .لو نأخذ الشعر الجاهلي مثلا يمكن عده واقعة اجتماعية حفظت تراث العرب وخلدته؛ فقد كشف تفاعل الأبعاد الزمنية من ماضي وحاضر ومستقبل ،عن الكثير من "المظاهر الاجتماعية السائدة في الجاهلية، وتفسر لنا الكثير من صفات الحاضر التي يتصف بها مجتمعنا اليوم،وقد رأينا ذلك الموقف البطولي للإنسان العربي أمام الموت و الفناء و أخطار الطبيعة،فلم يكن العربي ينفر من الحياة بل كان يقبل عليها بنهم كبير، يبغي اقتناص لذاتها و ممارسة صعوباتها إيمانا منه بأن اللذة تكمن وسط الألم والعكس،وبذلك فقد مارس العربي حياته مستخدما كل الوسائل ،و في مقدمتها الكلمة التي آمن أن لا شيء يبقى سواها ،فخلد بها الأطلال وخلد مآثر قومه وصفاته كما تحلى بالصفات الخلقية الحميدة ،فكانت هذه وسيلة من وسائل إثبات الوجود ومقاومة الفناء"[1] .

ولو نتحدث عن الرواية ، فهي أيضا تصور الواقع بكل تناقضاته و مظاهره ،لذلك يصبح الأدب من خلالهما ، أي الشعر و الرواية عبارة عن مؤسسة اجتماعية كبرى ،أداتها اللغة و التي هي جماعية ، أي من خلق المجتمع .

يصبح الأدب بهذا المعنى الحياة في أوسع معانيها ، وقد وجدت مناهج نقدية تقوم بتحليله من منظور اجتماعي، وهذا ما عرف بالنقد الاجتماعي أو النقد السوسيولوجي الذي يرتبط أكثر بالسرد الروائي لقدرة هذا الأخير على تصوير الواقع .

وتعود الأصول الفلسفية للمنهج الاجتماعي إلى أفلاطون الذي يرى أن الأدب هو محاكاة للواقع و تقليدا له؛ بمعنى أن هناك علاقة بين العمل الأدبي والمجتمع ،و ما على الأدب إلا تصوير

---

[1]- **صالح مفقدودة ، الأبعاد الفكرية و الفنية في القصائد السبع المعلقات ،دار الفجر للنشر و التوزيع ، القاهرة ،ط1، 2003، ص203.**

هذا الواقع كما هو ، أو كما يراه . إن المحاكاة عند أفلاطون هي :"نقل مرآوي ومشوه ومزيف للواقع"[2].

أما أرسطو فقد تبنى فكرة المحاكاة ، أضاف إليها فكرة التحوير، أو إعادة تصوير الواقع ، بمعنى الأديب لا ينقل ما يراه فقط و إنما يتصرف فيه وفق رؤيته الخاصة؛ أي أن المحاكاة عنده هي "ما ينبغي أن يكون في الواقع ،و المحاكاة تنقل ما يمكن أن يوجد و أن يكون "[3].

تعد إذن،أداء كل من أفلاطون و أرسطو الانطلاقة الأولى لفكرة علاقة الأدب بالمجتمع و على الرغم من اختلاف نظرتهما إلى المحاكاة إلا أنهم اتفقوا أن الأدب يمكن أن يكون أداة ناجعة لنقل الواقع .

ثم ظهرت المدرسة الوضعية التي دعت إلى التحرر من الأفكار الكنسية ، ودعت إلى الثورة على النظام الإقطاعي، وقد بدأت معها الحركة العلمانية التي بجلت العقل،فكان أن حدث تحول من الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر المادي الذي ينظر إلى الأشياء بواقعية، وقد بدأ في الأدب مع هذه الحركة التركيز على علاقته بالمجتمع أو البيئة ، وبدأ الأدباء منذ القرن السابع عشر الميلادي يتحدثون عن تأثير المجتمعات في آداب شعوبها؛ و كان من بينهم "جيمس رايت"(1699) ، و الفيلسوف "لودي بونال" (1754_1840) ،و أعقبه الكاتب الفرنسي "ستاندال" في روايته الأحمر و الأسود، ثم الفيلسوف الإيطالي "فيكو" في كتابه العالم الجديد (1725)".

شددت المدرسة الوضعية على الاهتمام بالظروف التي يعيش في كنفها المؤلف بوصفها تسهم في نشأته، و بالتالي فإنها مؤثرة في أعماله الأدبية.

و يرى الباحثون أن البدايات الحقيقة لهذا المنهج تعود إلى ثلة من النقاد من بينهم "مدام دوستايل" في كتابها " الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية" سنة 1800 ." و هي تقصد بالأنظمة الاجتماعية المختلفة الأنظمة التي يتشكل منها المجتمع كالدين ،و السياسة ، والأخلاق ،

---

[2]-**شكري عزيز ماضي ، في نظرية الأدب ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1993، ص32.**

[3]-**المرجع نفسه ، ص33.**

والقوانين "[4]. وقد سعت الناقدة في هذا الكتاب إلى دراسة "الظاهرة الأدبية بوصفها ظاهرة اجتماعية ، و عرضت تفسيرا اجتماعيا تاريخيا لبعض الأمم"[5]. ولعلها كانت تهدف إلى إظهار "مدى تأثير الدين و العادات والقوانين على الأدب ومدى تأثير الأدب على الدين و العادات والقوانين".

كما أصدرت سنة 1810 كتابا آخر بعنوان "ألمانيا و آداب الشمال" ،رصدت فيه ارتباط الأدب بالبيئة و المجتمع و آثرهما في تشكيل الأدب، فأدب أوروبا مثلا يختلف عن الأدب العربي اختلافا كبيرا لأن المجتمع يؤثر في الأديب "إن محاولة الربط بين الفرد المبدع و الجماعة و أثر هذا الثالوث لا يلتقي إلا في إطار الإبداع الفني أو الأدبي على مستوى السوسيوثقافي رغم ما يوجد أحيانا من تناقض بين مضمون الأثر و سلوك الفرد المبدع ،لكن الوظيفة الموضوعية لسلوك الكاتب لا تعتبر موضوعا رئيسيا في هذا المجال "[6].

وجاء بعد "مدام دوستايل" سانت بيف " ليطور هذه الفكرة من بعدها ،ويستفيد من تطويره من التقدم الذي أحرزته النظرية الاجتماعية منذ مونتيسكو وحتى أوجست كونت"[7] .

لقد كان اتجاهه علمي تجريبي، درس خلاله الأدب؛ فكان يبحث في النتاج الأدبي لا من حيث دلالته على المجتمع فحسب، ولكن من حيث دلالته على مؤلفه، فكانت أحكامه في النقد منصبة على شخصيات المؤلفين.

ولقد دعا إلى دراسة الأدباء دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم و أممهم و عصورهم ، و آبائهم، و أمهاتهم ،و أسرتهم ، و ثقافتهم، و علاقتهم بأصدقائهم و التعرف على كل ما يتصل بهم من عادات و أفكار ،و كل ما اضطربوا فيه طوال حياتهم في الغدو و الرواح،وفي الصباح و المساء .

---

[4] سيد بحرواي ، علم اجتماع الأدب ، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، ،1992، ص14.

[5] - محمد على البدوي ، علم اجتماع الأدب (النظرية و المنهج و الموضوع) ،دار المعرفة الجامعية ، بيروت ، 2002، 23.

[6] - سمير سعد حجازي : مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط1، 2004، ص96.

[7] - صبري حافظ ، الأدب و المجتمع ،مجلة فصول ، ع2،مجلد2، ص86.

ويضاف إلى هؤلاء الأعلام "هيبوليت تين"الذي دعا إلى التركيز على ثلاثة عوامل: الجنس و البيئة و العصر. ويقصد بالجنس :مجموعة الاستعدادات الفطرية التي تميز مجموعة من الناس انحدروا من أصل واحد فهو يزعم أن العرق له دوره في توريثه بعض الخصائص الجماعية .

أما البيئة فيقصد بها الوسط الجغرافي و المكاني الذي ينشأ فيه الأديب . أما العصر فهو الأحداث السياسية و الاجتماعية التي تكون طابعا عاما يترك أثره على الأدب (حرب 67 مثلا و تأثيرها الكبير على الأدب العربي)، و الواقع أن هؤلاء الأعلام يحسبون على المدرسة التاريخية في دراسة الأدب ،و لا يعد هذا تناقضا،لأن المنهج الاجتماعي ترعرع "في حضن المنهج التاريخي،فقد تولد عنه واستقى منه منطلقاته الأولى خاصة عند المفكرين و النقاد الذين استوعبوا فكرة تاريخية الأدب و ارتباطها بتطور المجتمعات المختلفة و تحولاتها طبقا لاختلاف البيئات والظروف والعصور "[8].

وهناك من يرى أن المنهج الاجتماعي " هو الذي تبقى في نهاية الأمر من المنهج التاريخي و انصبت فيه كل البحوث و الدراسات التي كانت في البداية متصلة بفكرة الوعي التاريخي، إذ سرعان ما تحول هذا الوعي إلى وعي اجتماعي يرتبط بطبيعة المستويات المتعددة للمجتمع ، و بفكرة الطبقات و كذلك يرتبط بفكرة تمثيل الأدب للحياة على المستوى الجماعي ، و ليس على المستوى الفردي"[9].

ثم جاءت المدرسة الجدلية التي تزعمها المفكر الألماني "هيجل" الذي تحدث في محاضراته عن فلسفة التاريخ سنة 1822 عن علاقة جدلية بين الأدب والمجتمع ؛ بمعنى أن الأول يتغير بتغير معطيات الثاني لذلك يمكن الولوج ، و فهم الثاني من خلال الأول؛ أي أن الأدب يصبح مدخلا حقيقيا لفهم المجتمع كما أن المجتمع يفهم من خلاله.

أولت بعد ذلك كل النظريات الماركسية الفكر الهيجلي عناية خاصة بحيث انطلقت منه و كان ماركس يقف في طليعتهم.

---

[8]-صلاح فضل ،مناهج النقد المعاصر ،إفريقيا الشرق ،2002،الدار البيضاء بيروت ،

[9]-المرجع نفسه ، ص39.

و يعتبر ماركس "أول من أعطى تفسيرا موضوعيا للعلاقة بين الأدب والمجتمع ، وعين لها موضوعا داخل مجموعة العلوم الاجتماعية ،واعتبر الأدب واقعة اجتماعية تاريخية ... و أن الكاتب يعبر في أعماقه عن وجهة نظر الطبقة التي ينتمي إليها بوعي أو بغير وعي "[10].

عندما نتحدث عن ماركس فإننا نتحدث عن معالم الفكر الماركسي للفن و الجمال ،وهي تظهر في أعمال "بلخانوف" و، مساهمات "لنين" ، و "تروتسكوي" في بعض كتابته ،وتتلخص النظرة هنا في أن الفن –في نظر ماركس- شكل من أشكال تمثل العالم ،وسيلة معرفة ،رابطة اجتماعية،سلاح وظيفي، إغناء للوعي الإنساني و مرآة للمجتمع" [11].

---

[10]-سمير سعد حجازي ، مدخل إلى علم مناهج النقد الأدبي المعاصر ، ص86.

[11]-عبد الوهاب شعلان ، المنهج الاجتماعي و تحولاته ، من سلطة الايديولوجيا إلى فضاء النص ، عالم الكتب الحديث ، عمان ، الأردن ، 2008،ص100.